وحدة الوجود

أمذهب أم فكرة ؟

« ان وحدة الوجود ليست إلا نزعة او اتجاهاً عقلياً بسيطاً أريد به التخلص من مشكلة كبرى ، فأدى القول به الى مشكلة اكبر »

كثر التحدث في العهد الأخير في وحدة الوجود ، وتقدم للكلام في هذا الموضوع طائفة من جلة أدبائنا ، فتفرقوا فيه شيعاً ، ومضوا في بحثه أحزاباً وفرقاً ، على أن كل ذلك انما يدل دلالة واضحة على أننا في صحوة من الفكر ، ويقظة في متابعة الدرس ، فان الذين أقاموا الدليل عليها ببحوثهم ، أنهم كانوا تراجمة أمناء على البحث والتقصي .

ولا شك عندي في أن هذه الظاهرة لها دلالة أخرى لاتقل من يقظة الفكر شأناً ومكانة . تلك ناحية أن الفكر المصري قد أخذ يتعمق في الدراسات الفلسفية ؛ وانه ألف أن يظل بعيداً من التسامي إلى آفاق الفكر البعيدة .

غير أن تلك البحوث التي مضى فيها هؤلاء الأساتذة الأجلاء قد نقصتها ناحية ذات بال من نواحي التأمل . فقد مضى بعضهم في البحث على أن وحدة الوجود مذهب ، فقال في بحوثه ان مذهب وحدة الوجود كذا ، وان مذهب وحدة الوجود كيت ، من غير أن يقيم الدليل على أنه مذهب صحيح له شعابه المترامية ومفازاته القصية وله حقائقه وغيبياته ، شأن جميع المذاهب الكبرى في الفلسفة . فليس لوحدة الوجود من الأصول والفروع مثلاً ما لمذهب المادية أو الروحانية أو مذهب الكلام عند النصارى وعند المسلمين ، أو مذهب الالوهية عند المتألهين ، أو مذهب الشكية عند اصحاب الشك ؛ أو مذهب اللاأدرية عند اللاأدريين أو مذهب اللادينية عند من يثبتون الله وينفرن الأديان ؛ أو مذهب الجبرية أو القدرية أو المشبهة أو المعطلة . فجماع هذه مذاهب تقوم على فكرة هي الأساس، تتشعب من حولها فروع وشعب من الفكر لا نهاية لها . فهل في القول بوحدة الوجود شيء من ذلك ؟ لم يتكلم أحد من الباحثين في هذا . وكان من الواجب أن يقوم البحث بداءة ذي بدء على أساس ثابت يكون بمثابة البورة تنبعث منها أشعة تتراءى في شعاب الفكر .

إن كلمة Pantheism — من حيث التخريج اللغوي معناها القول بأن الكل هو الله

أو أنّ الله هو الكل . ولما كان الفكر قد يتراوح بين القول بأن الكل لله أو أن الله الكل ، فقد حتم أن يكون لهذا القول وجهان :

فاذا بدأت من حيث انتهى المعتقد الديني أو الايمان الفلسفي بالله وانه حقيقة لا نهائية سرمدية ، إذن فالعالم النهائي الموقوت يندمج في الله ، وهنا تلبس وحدة الوجود ثوب اللاكونية — Acosmism — أي ان المادة ليست غير خيال إلى جانب الله الذي هو الحقيقة الثابتة . أما إذا بدأت من حيث انتهى المعتقد العلمي أو الصورة الشعرية للمادة باعتبارها وحدة ، فان الله يندمج في المادة وتلبس وحدة الوجود ثوب « الوحدة الكونية » — Pancosmism . والأولى نظرة إلهية ، والثانية نظرة معطلة (تنكر وجود الله) .

والتفسير المنطقي البسيط لتينك النزعتين هو أنك إذا قلت بأن « الكل لله » أثبت وجود الله وان لا شيء خارج عنه ، وعطلت وجود المادة . وإذا قلت بأن « الله الكل » أثبت وجود المادة وان لا شيء خارج عنها ، وعطلت وجود الله . هذا على أن لا تغفل أبداً عن أن لكل من الوجهين معضلات عقلية محضة لا تنتهي من إحداها إلاّ لتقع في أعضل منها . وعلى هذه الوتيرة ظل الفكر الانساني ازاء هذه القولة منذ أقدم العصور حتى الآن ولم يخط خطوة واحدة الى الامام .

وعندي أن القول بوحدة الوجود ليس مذهباً فلسفيّاً ولا هو فكرة ترتد إلى أساس أولي في العقل . ومعنى انها ليست مذهباً أنها تدور وتتركز حول شيء واحد هو القول بأن الله والمادة واحد لا يتجزأ ، من غير أن يرسل هذا القول ضوءاً على أية ناحية أخرى من نواحي المعرفة . فلا شعاب له ولا فكرات ولا تعمق في استبطان حقائق الوجود . ومعنى إنه ليس فكرة أنه لا منطق له يتقوم عليه . فما هو مثلاً منطق القول بوحدة الوجود إذا نحن أردنا أن نحدد منطقها ؟ أما الحقيقة التي أومن بها ، فهي أن وحدة الوجود ليست إلاّ نزعة أو اتجاهاً عقليّاً بسيطاً أريد به التخلص من مشكلة كبرى ، فأدى القول به إلى مشكلة أكبر . بل لقد كان لذلك التجه العقلي آثار أخلاقية عمك القلم عنها لأنها إلى الرذيلة وتكران الفضائل كافة . كذلك كان لها سقطات فكرية يترفع عنها عقل سلم من معضلات القول بوحدة الوجود . وما قولك فيمن يقول « ما في الجبّة إلاّ الله » . سبحانه وتعالى

. قد يطلب الينا تبيان ذلك الشكل الذي حدا بالعقل إلى أن ينزع هذه النزعة ويتجه ذلك المتجه : وليس ذلك بمتعذر على من أدرك طرفاً من فلسفة القدماء . فالواقع الثابت أن وحدة الوجود لم تقم في العقل البشري إلاّ نتيجة للبحث في الله والقدم . فزاد القول بها مشكلة الله والقدم استعصاء على منطق العقل العرفي .

ما هي علاقة الله بذلك الاتجاه العقلي ؟

في الفلسفة مبحث يقال له السببية — Causality — مؤداه أن كل مسبب لا بد له من سبب ، وإن كل معلول لا بد له من علة ، والسبب لا يقوم بنفسه وإنما يقوم بالسبب ، وكذلك المعلول فانه لا يوجد بذاته وإنما يوجد بوجود العلة . فاذا زال السبب أو العلة زال السبب وزال المعلول . هذا منطق بسيط جداً يخاطب عقل البسطاء ، كما يخاطب عقل النبهاء من أهل التأمل . وكفى أنه منطق العربي البسيط الذي يقول : الأثر يدل على المسير .

والعلة في منطق الفلسفة الاستنتاجية أنواع ، لا مجال للخوض فيها هنا . وإنما نقول إن مجمل القول فيها أن العلة إذا كانت ناقصة تخلف عنها معلولها ، فاذا تمت فلا بد إذن من وجود المعلول . مثلاً : إذا وجد الخشب والأدوات والنجار ، فهل يكفي ذلك لوجود الكرسي . كلا ، ذلك بأن هذه الأشياء تكون علة ناقصة . فاذا أضيف إلى ذلك الارادة ، كملت العلة ، وإذن يقوم المعلول ، وهو الكرسي .

والله لا شك علة العلل ، فلا مناص من القول بانه علة كاملة ، لا يتخلف عنها معلولها بصورة من الصور . ولا شك أيضاً في أنه قديم . لأن الحدوث مستحيل عليه باعتباره من صفات المعلولات ، لا من صفات العلل الغائية .

إذا انتهينا من ذلك وجب أن نعتقد ان لله معلولاً أعظم لا يتخلف عنه ولا يشاركه في صفاته التي من أخصها القدم . فهل المادة التي هي المعلول الأعظم للعلة الغائية ، قديمة أم حادثة ؟ فاذا قيل بأنها حادثة تساءلنا كيف حدثت ؟ وهل يمكن خلق شيء من لا شيء ؟ أو محو شيء الى لا شيء ؟

فاذا قيل بقدم المادة ، شاركت المادة الله في قدمه . وإذا قيل بحدوثها ، كانت الطامة على العقل أعظم وأكبر . فمها اذا كانت حادثة دل ذلك منطقياً على ان الله كان علة ناقصة ولما كملت حدث المعلول . وذلك ما لا يقول به أحد من أصحاب الألوهية على اطلاق القول .

هنا نزح العقل الى وحدة الوجود ، لا لشيء ، إلا ليتخلص من مشكلة العلة والمعلول والقدم والحدوث ، فقال إن الله والعالم ، وبالأحرى أن الله والمادة ، وحدة لا تنقسم . هذا ليتخلص من تضارب المنطق عند البحث في الله والقدم .

غير ان ذلك أدى إلى مشاكل أعظم . فأنت وأنا والجماد وللحيوان وما يعقل وما لا يعقل أجزاء في تلك الوحدة ! هنا تنتفي كل القيم التي قدسها العقل وساق اليها التأمل في الألوهية . تلك هي نزعة العقل إلى وحدة الوجود . نزعة أراد العقل بها التخلص من مشكلة كبرى ، فوقع في مشكلة أكبر .